المرأة الساحرة

تلخيص وتعليق

(تمهيد)

كانت الأميرة (سيرسية) مصدراً من مصادر الوحى والالهام لكثير من شعراء اليونان القدماء وكثيراً ما افتنوا فى اطراء هذه الساحرة التى خلبت بعقول عاشقيها بجمالها الفاتن وحسنها الباهر ،وقد عزت اليها الخرافات اليونانية ونحلتها الأساطير الاغريقية كثيراً من المميزات، فروت عنها روايات غريبة نسقها التواتر وأبدعها الافتنان وروعة الخيال حتى جعلها مضرباً من مضارب الامثال بما شهرتها به من قوة تأثيرها على العقول وشدة سلطانها فى استهوائها النفوس، حتى زعموا أنه لم يكن فى عصرها من يستطيع الثبات أمام جمالها الفاتن ، مهما أوتى من قوة الارادة ومضاء العزيمة. فقد كان حب البطل الكمى أو المتمرد الطاغى أن تسدد إلى قلبه نظرة واحدة من نظراتها الساحرة،فتخور قواه و ينقلب عزمه تردداً وقوته ضعفاً

و قد لاتقف معه عندهذا الحد بل تجعله حيواناً ذلولا بعدأن تسلب منه قوة ارادته وكثيراً ما سحرت عاشقيها والمفتونين بها خنازير بعد أن ردتهم أسرى شهواتهم وعبيد لذاتهم .

وقد كان جنود (عولس) ملك (ايثاك) من بين ضحاياها ، فقد سحرتهم خنازير — كما سحرت غيرهم — من قبل. أما (عولس) فتحدثنا عنه الاساطير أنه الشخص الوحيد الذى قاومها فنجح فى مقاومته وعجزت عن أن تنال منه بفنون سحرها ومكرها ، أو تلحق به أذى. وقد سجلت له الاساطير الاغريقية هذا الفوز الخالد

خلاصة القصة

ذلك ما تحدثنا به الخرافات فى غاية الزمان وتنبئنا بحدوثه فى أقدم العصور .

و لما كان التاريخ — كما يقولون يعيد نفسه — و الايام لا تفتأ تكرر الحوادث المتماثلة

بين حين وآخر — والمثل العربى يقول « ما أشبه الليلة بالبارحة!» ولا أمر ما قال القائل:

ما مر فى دنياك أمر معجب إلا أرتك لما مضى تمثالا

وقال فى مكان آخر :

. . . . . وهذه الليالى كلها أخوات

فلا تطلبن من عند يوم وليلة خلاف الذى مرت به السنوات

حدث أن فتاة بارعة الحسن رائعة الجمال من بنات العصر الحالى ، طابق اسمها اسم (سيرسيه) ساحرة العصر الغابر ، ولم تكن لتقل عنها مقدرة وافتناناً ، ولا كان سحرها أقل من سحر تلك أثراً فى نفوس العاشقين

كانت (سيرسيه) بطلة قصتنا الحديثة آية من آيات الابداع وسراً من أسرار الجمال ودمية فريدة من دمى الحسن. يحار المتأمل فى جمالها ، ويتملك عليه كل نفسه فينسى كل شىء ، غارقاً فى تأمل محاسنها التى لا تنفد

فى هوى مثلها يخف حليم راجح حلمه ويغوى رشيد
غادة زانها من الغصن قد ومن الظبى مقلتان وجيد
وزهاها من فرعها ومن الخد ين ذاك السواد والتوريد
فهى برد بخدها وسلام وهى للعاشقين جهد جهيد
ما لما تصطليه ومن وجنتيها غير ترشاف ريقها تبريد
مثل ذاك الرضاب أطفأ ذاك الـ ـوجد ؟ لولا الأباء والتصريد

***

كذلك كانت (سيرسية) الحديثة مصدر سحر وفتنة لمحبيها وعشاقها الكثيرين الذين كانوا لا يترددون لحظة فى تلبية كل رغباتها سباقين إلى تنفيذ أية اشارة من اشاراتها ظانين فرحين . فلو أمرتهم أن يلقوا بنفوسهم فى البحر لفعلوا أو يطرحوا بها فى هاوية لما أحجموا ! ولقد كانت ابتسامة من (سيرسية) لعاشق كافية لاستهوائه وانتزاع ثروته — بل روحه — لو شاءت ، وكانت محاسنها متجددة ، وجمالها الفاتن يزداد سحره ويقوى سلطانه يوماً بعد يوم

ليت شعرى إذا أدام اليها كرة الطرف مبدى ومعيد

أهي شيء لا تسأم العين منه أم لها في كل ساعة تجديد
بل هي العين لا يزال متى استع رض يملي غرائبا ويفيد

على أنها كانت — مع كل هذا — تحافظ على نفسها محافظة نادرة ولا تسمح لواحد من محبيها أيا كانت منزلته أن ينال منها أربا ، أو يقضي منها لبانة . فقد كانت تضن على أعز عزيز فيهم بقبلة واحدة يطفيء بها أوراه أو ينقع بها غلته

وكان من بين أصدقائها ومحبيها الجراح (فان مرتيب) وهو طبيب فاضل ومثال نادر من أمثلة النزاهة والجد ونموذج فذ من نماذج الاستقامة والشرف . يقيم على مقربة من بيتها بحيث يستطيع بأدنى نظر أن يرى كل ما يحدث في منزلها في أكثر الايام من حفلات الاستقبال الشائقة ومغازلات العاشقين ورقصهم المزري .

ولقد كان يحب في تلك الفتاة الجميلة قدها الممشوق وحسنها الساحر ومحاسنها التي افتنت في اظهارها وأبدعت في تنسيقها القوة الالهية، ولكنه كان — إلى هذا — يكره منها ذلك الاسفاف الشائن ويمقت فيها ذلك الاستهتار المزري الذي تنحط اليه، وكثيرا ما أمضه وأقلق باله أنها لا تصون جمالها عن الدنس وانها تسيء إلى حسنها فلا تنزهه عن تلك الأرجاس التي انغمست فيها، فقد كان يرى أن مثل جمالها الرائع جدير أن يتخذ وسيلة لتهذيب النفوس والتحليق بها في أجواء الطهر والعفة، لا أن يتخذ وسيلة لأحط الدرك وأدنأ الغايات !

كان إذن يقدس جمالها بمقدار ما يسخط على حقارة نفسها وتدليها في هذه الهوة السحيقة . كان يرى فيها صورة ملاك ونفس شيطان! كان يرى أمامه جمالا علوياً ونفسا سفلية مغمورة في القذارات والأرجاس فيتحسر ويحزن ويتألم

كان الدكتور جراحا منصرفاً إلى عمله معنيا بشئون مرضاه، وكان إلى ذلك يزور (سيرسية) أحيانا وربما تأخر عن زيارتها بسبب ما تتطلبه مهنته من الاهتمام بمرضاه والانصراف الى شئونهم، وكانت (سيرسية) تشعر بانعطاف اليه ، وتخصه باحترام نادر من بين عشاقها الكثيرين . فتلتهب قلوبهم حسداً له وغيرة منه، وكثيرا ما رأوا فيه منافساً خطراً، فنفسوا عليه ما له من الحظوة ورمقوه بأعين شزر . ولم لا وهي تميل

اليه دون أن يتقرب اليها و تفضله على خلانها وفيهم من جن بعشقها جنونا ، وفيهم من غمرها بهداياه الثمينة ،ومنهم من يشترى لها أنفس الحلى و ينتقى لها أغلى الجواهر رغبة فى بلوغ رضاها .ولكن أحدا منهم -رغم هذه الجهود - لم يبلغ شأو هذا الطبيب و لا استطاع اللحاق به فى هذا المضمار ، على أن (سيرسيه) نفسها لم تكن تخلو من نقمة على هذا الطبيب. فقد كان يؤلمها أيضا ما تراه فيه من قلة الاكتراث بها و عدم الاهتمام بأمرها مع ما تبذله من الجهد فى سبيل التأثير عليه ، وكانت لاتنى تستهويه بجمالها غير تاركة فرصة تسنح دون أن تنتهزها لعلها تصل إلى قلبه و تحرك بواعث الحب الكامنة فى نفسه

وفى ذات ليلة جمعتهما المائدة فى احدى حفلاتها — وكان كرسيها إلى جانب كرسيه — فأمسكت بطرف رغيف ثم سألته أن يجذبه من طرفه الآخر فكان من قسمته الجزء الأكبر منه ، فالتفتت اليه باسمة وقالت : « أرى أن الجانب الأكبر من الرغيف وقع فى قسمتك ومعنى هذا فى لغة العرافة و التنجيم أنك ستحتمل بسببي هماً كثيرا » فلم يجبها الطبيب بأكثر من ابتسامة الساخر الهازىء الذى لا يعتقد بأمثال هذه الخرافات

***

انتهى العشاء وقامت ترقص مع خلانها الذين تسابقوا متنافسين فى اظهار حبهم لها بما قدموه بين يديها من الهدايا الفاخرة والحلى الثمينة. ولقد كادوا يصطدمون معا فى ألف عراك كلما نظرت إلى هذا أغضبت ذاك ،وكلما ابتسمت لأحد عشاقها التهب قلب منافسه غيظا و اشتعل فؤاده حقدا على ما ناله منافسه من فوز ، وهى لا تفتأ تلطف من حقدهم بمهارتها و رشاقة حركاتها ملائمة بين أهوائهم المصطدمة بقوة ودهاء ولطف حيلة، كما يلائم الملاح الماهر بين قوى الريح المتنافرة و يتخذ منها جميعا وسيلة إلى تسيير مركبه بين الزعازع والعواصف الهوجاء .ثم لم تلبث أن التفتت اليهم باسمة وقالت: « من أحبنى منكم فليتبعنى » ولم تكد تتم هذه الجملة حتى اندفعت إلى بركة من الماء كانت على مقربة منها فتبعها المتنافسون مندفعين الى البركة جميعا — إلا الطبيب — غير آبهين لملابسهم ولا ملوين على شىء فى سبيل ارضائها والرضوخ لاشارتها ، ووصل اليها عاشقان فى وقت واحد وحاولا تقبيلها معا فلكز أحدهما الآخر بقوة

فألقاه فى الماء ، وكرت الفتاة منفلتة بمثل سرعة البرق فافلتت من عشاقها هاربة، وحانت منها التفاتة فرأت الطبيب واقفا إلى جانب الباب منتحيا وعليه سيما الجد وأمارات الوقار فحيته باشارة خفيفة من عينها وهو واقف وقفة التأمل الهازئ ثم سألته لم لا يشارك عاشقيها فى لهوهم و مرحهم ، فأجابها ساخراً إنه أرفع من أن يشركهم فى مثل هذه الحماقات و أسمى من أن يقترف معهم هذه الدنيات، مؤكدا لها أنه يحتقر (سيرسيه) ويمقت ألعابها أشد المقت — وانما أراد بذلك أن يشير إلى (سيرسيه) الساحرة اليونانية من طرف خفى، فلم تدع (سيرسيه) بطلة قصتنا الحديثة هذه الفرصة تمر دون أن تنتفع بها فاجابته قائلة : « ولكن حذار أن تنسى أن سطوة (سيرسيه) قد حولت رفقاء « عولس » خنازير » فيجيبها شامخاً بأنفه « بيد أنها عجزت أخيرا عن « عولس » نفسه لما أظهره من الحزامة والحكمة النادرة »

وهنا يفترقان

وتجلس (سرسيه)فى مخدعها مفكرة مهمومة مستعيدة خلاصة مامر بها من الحوار مع الطبيب الجراح، ثم يعن لها أن تتجمل بملابس بسيطة تعتقد أنها تعجبه لميله إلى البعد عن التكلف ، ولكنها تبدأ بمحادثته فى المسرة (التليفون) بعد أن تطلب خادمها النمرة المطلوبة ، ولا تكاد تبدأ الكلام مع الطبيب حتى يشتد بينهما اللجاج ، وتلقى بالسماعة مغضبة حانقة. أما حوارهما فقد كان مقتضباً جافا غاية فى الايجاز :

— أليس من عادة أهل طبقتكم الرفيعة أن يحيوا الحاضرين قبل مغادرتهم؟ ثم لماذا هربت يا سيدى الطبيب بمثل تلك السرعة ؟ لعلك خفت الانهزام ؟

— ربما كان ذلك

— ولكن قل لى لم هذا التجانف والكبر ؟

— لأنى لا أستطيع فهم أمثالك من النساء!

هنا ألقت بالسماعة مغضبة وظل قلبها يخفق خفقانا شديداً متداركا ونبض نبضات قوية ، وظلت تردد قول الطبيب متأثرة قائلة « أمثالى من النساء » « لا يفهم أمثالى من النساء » « يالله وهل أنا بدع فى هذا العالم ! »

وإنها لتستسلم لهذه الأفكار العابسة إذ تأخذ نظرها مذكرة حياتها اليومية التى

أهملت تدوين الحوادث فيها منذ من بعيد ، تتناولها يد متثاقلة، ولا يكاد يقع نظرها عليها حتى تستعيد ذكرى حياتها الأولى ، فتقرأ فيها قصيدة محزنة تدعو إلى العبرة والعظة، ترى نفسها وهى فتاة واقفة أمام الدير معجبة برؤية الراهبات فرحة بمنظرهن البهيج — وهن سائرات إلى حديقة الدير — فلا ترى أمنية وقتذاك أشهى ولا طلبة أعذب من أن يمن الله عليها فتصبح فى عدادهن وتندمج فى سلكهن ،ولا تلبث أن تلتفت اليها إحدى الراهبات مبتسمة ابتسامة المشجع لها على تنفيذ ما يساور رأسها من الأمانى والأحلام ، ثم تتبع أخواتها إلى الدير ، وإن فتاتنا لغارقة فى تصوراتها أمام باب الدير إذ لمحها شقى من أشقياء الانس — فى بدء العقد الثالث أو نهاية العقد الثانى من سنيه — يحمل على رأسه سلة خبز ، بهر لبه جمال ساقيها العاريين فوقف يتأمل محاسنها مليا ثم تلفت يمنة ويسرة فلم ير فى الطريق أحدا . فشجعه ذلك على الاسترسال فى فكرته الخبيثة التى سولتها له نفسه، فتقدم نحوها بخطوات ثابتة حتى أدناها ثم أمسك بذراعها يحاول تقبيلها وهو يقول لها ، ليس هذا الدير لمثل جمالك،فهلمي أيتها الملاك فتقبلينى ، فدفعته عنها بعنف وشدة — بسبب الذعر الذى تملكها — فهوت سلة الخبز من فوق رأسه إلى الأرض وولت الفتاة هاربة ، فأسرع إلى اللحاق بها،ثم أمسك يديها بقوة شديدة وجذب الفتاة نحوه فانجذبت مرغمة ، ثم أمسك بصدغيها بين يديه واغتصب منها قبلة — لمع لها جبينه وقطب لها جبين الفتاة — وعاد أدراجه وهو يترنح من الفوز ، وعادت الفتاة متخاذلة متثاقلة إلى بيتها، فارتمت فى أحضان أمها حزينة كئيبة تلمس موضع العار من شفتيها، كأنما تحاول أن تزيل ما علق بفيها من آثار القبلة !

***

وتظل تقلب أوراق مذكراتها فترى فى ثنايا صفحاتها ضعفها الشديد عن تحقيق أمانيها وتقرأ ما سجلته على نفسها من اخفاقها التام فى الاندماج فى سلك الراهبات .

وتقرأ صحيفة أخرى فتتمثل نفسها وهى تعمل فى حانوت قصاب وإنها لتحسب دخل المحل إذ حانت من صاحبه التفاتة — وهو منهمك فى عمله والعرق يتصبب على جبينه ويتساقط من كل أنحاء وجهه — فرأى جمال الكاتبة فوقف يتملى بحسنها برهة، ثم

عن له مثل ماعن لصبي الفرار من قبل ، فذهب ناحيتها حتى داناها ثم أمسك بذراعها اليسرى باحدى يديه — بينما كانت مستغرقة فى عملها — وقدم لهـا دجاجة بيده الأخرى ، وحاول أن يقبلها اغتصابا فدفعته عنها مغضبة وثم تملكها الغضب فكشر لها عن أنيابه وانقلبت سحنة وجهه ودمدم غيظا وحنقا ثم تركها قائلا : « لك أن تغادري العمل إذا كنت لا أروقك » فخرجت من حانوته تتعثر فى أذيال الخيبة — وقد ظهرت آثار أصابع القصاب المتسخة على ذراعها اليسرى واضحة جلية —

وثم تلقى مذكراتها من يدها آسفة على ماجرته عليها الحياة من ويلات لم يكن لها قبل بدفعها ، ثم لاتلبث أن يتسرب العزاء إلى نفسها فتقول — إن الحياة خدعة وأهلوها أشرار والمرأة بينهم ضحية ولست جديرة أن أناضل الناس بغير سلاحهم أو أعاملهم بغير معاملتهم ! »

*
* *

ونرى — فى منظر آخر — الطبيب الجراح بين مرضاه فى حديقة القصر الذى اتخذه مصيفا له وهو يواسى هذا ويطمئن ذاك ويشرك صغارهم فى العابهم ليرفه عنهم كثيرا من آلامهم ، وربما زلت قدمه فعثر أو اصطدم ببعض الصبية فبذل كل ما فى وسعه لترضيه وإزالة مالحقه بسببه من الألم ، ثم لايدعه حتى يرى ثغره باسما ووجهه متهللا ، وإنه لكذلك إذ تدخل (سيرسيه) متنكرة باسم غير اسمها فتنبئه الخادم أن سيدة مريضة بالباب تريد لقاءه فيأمر بادخالها حجرة الاستراحة ، ولا يكاد يدخل حتى يجد (سيرسيه) أمامه فيغضب أشد الغضب إذ يتبينها ويعرف أنها هي ، ويسألها مستفسرا : « ماذا دعاك أيتها السيدة إلى الدخول عندى متنكرة ؟ ألم يكن الأجدر بك أن تكونى صريحة وأن لاتلجئ إلى مثل هذه المواربة الممقوتة ؟ » فتجيبه : « ولكننى أراك تتهرب منى دائما ، وإنى لعلى يقين من أنك كنت ترفض مقابلتى ممتنعاً كل الامتناع عن لقائى لو صرحت للخادم باسمى الحقيقى ، ومع ذلك فأنا مريضة أيها الطبيب ، نعم مريضة جديرة بعنايتك لعلى أشفى من علتى » فيجيبها : « لا بل أنت تتمارضين » وهنا تلوح منها التفاتة فترى على طاولة الطبيب إطارا فيه صورة فتاة جميلة فيلهب قلبها غيرة وحقدا ، وتسأله : « أهذه هى معشوقتك أيها السيد » فيقول : « نعم هي خطيبتى وقد كنا على

وشك الاقتران يوم اختطفها الموت منى، فلا تسمع الشطر الأول من جوابه حتى تكاد تصعق لو لم يندا كها الله برحمته و يسرى عن نفسها تتمة الجواب فيزول من على صدرها كابوس ثقيل ،إذ تعلم أن منافستها قد انتقلت إلى العالم الثانى.

ويبدأ الطبيب بفحصها ولا يكاد يلمس يدها وصدرها حتى تشعر (سيرسيه) كأنما كهرباء الحب قد ألهبت جسمها إلهابا فتنهد تنهد العاشقة المولهة وتلمس هاتين الناحيتين من جسمها اللتين لمسهما الطبيب بيده فيلتفت اليها مغضبا ويقول: «ثقي أيتها المرأة المستهترة أن هذه الحياة البليدة ستودى بك بعد قليل من الزمن» فاذا رأت ضراعتها له غير مجدية وألفت آمالها غير محققة عاودها الاباء والشمم فأجابته شامخة بأنفها: «ألا تعرف بماذا أجابت (سيرسيه) حبيبها (عولس) حين رفض حبها واحتقر عشقها، لقد قالت له «وداعا».

تعود إدراجها صاخبة متأججة القلب حقدا وغيظا عاقدة العزم على نسيانه — كلفها ذلك ما كلفها — وثم نراها فى حفلتها الراقصة التى أعدتها فى منزلها ودعت إليها أصدقاءها وعاشقيها وافتنت فى استحضار جالبات السرور اليها، فأصبحت ردهة البيت حانة نادرة المثال وبدأت تعزف الموسيقى وتدور الأقداح وتتزع الأعطاف، ويستمر الرقص فاذا ثمل أحد عاشقيها حاول الدنو منها فأقصته عنها اقصاء — بعد أن لكزته بيدها لكزة حطمت بها كل آماله — ثم تلعب الخمرة بالرءوس و يحمى وطيس الرقص فتلهب النفوس حتى يخرج الحاضرون عن أطوارهم وينسوا أدنى واجبات الحشمة وأقل مستلزمات الوقار فتركب «سيرسيه» واحدا من عشاقها — بعد أن وضع على وجهه وجه وحش أقرب إلى أن يكون وجه خنزير — . . . و يظلون كذلك منهمكين فى رقصهم غارقين فى لهوهم ، حتى إذا لفتت هذه الجلبة الطبيب القريب من بيتها فتح نافذة طنفه، فأطل منها على هذا المنظر الغريب فرأى «سيرسيه» المستهترة ، فاذا لاحت منها التفاتة اليه زادت انهما كا وأسرفت إسرافا لا حد له فى لهوها .وظلت ترقص رقصا عنيفا متداركا وقد وضعت على رأسها قبعة من قبعات الرجال.فلم يتمالك الطبيب هذه الحركات الطائشة بأكثر من إغلاق باب الطنف ليضع حدا لرؤية هذه المساخر

هنا تشتعل نار الألم فى نفسها وتصهر جسمها من اليأس والفشل :فتمعن فى الرقص و يمعن معها عشاقها فى الرقص فتلاشى ذواتهم فى غمر اللهو الجارف :تخور قواها فترتمى على شاب

وضىء الوجه من عشاقها المدطين فيحاول تقبيلها فتمنعه ، فاذا شفه الوجد و شكا اليها حبه وهيامه هزئت به ساخرة . فاذا قال لها : « إني أعبدك وأراك أملى الحلو فى هذه الحياة فكونى لى » أجابته « مه فليس يروقنى هذا الهراء ولا يعجبنى منك هذا الفصل البارد الذى تقوم بتمثيله بين يدى الآن » فيصعق قلب العاشق ويهم بالانتحار فتلوح من سيرسيه التفاتة فترى عشاقها يلعبون القمار

وتسمع أحدهم يقول : « أراهن على ألف ريال » فتسرع إلى مشاركتهم فى المقامرة وتطلب الى العم جون أن يعطيها حوالة لتقامر بها ، فيقول لها المحامى العاشق : « بل أنا أثق بكلامه فلا حاجة إلى كتابة الحوالة »

تبدأ فى المقامرة فتكسب فى الدور الاول ثم يحدوها الطمع إلى الاستمرار فتخسر ما كسبته . فتتحمس لاستعاضة الخسارة التى لحقتها فتضاعف همتها وتشتد خسارتها فيزيدها ذلك تحمساً فتقامر على خمسين ألف ريال فتخسرها صفقة واحدة فيجن جنونها فتضع أمامها كل حلاها مقامرة عليها فيأبى نحس نجمها إلا أن تخسرها جميعاً . فتقول للمحامى قولة اليائس الذى أخرجه اليأس عن رشاده فأنساه ما يقول : « أقامر على منزلى فاذا نجحت استعرت منك كل ما فقدته وان أخفقت أضفت منزلى إلى ما خسرته » ويأبى سوء الحظ إلا ملازمتها إلى النهاية فتخسر فى المقامرة بيتها بعد أن خسرت قبله كل شىء .

طاحت أحلام (سيرسيه) فى الثروة كما طاحت آمالها فى الحب ، لقد كانت تبحث عن وسيلة لنسيان ما لحقها من الخسارة والاخفاق فى الحب وتستعيض بها عن يأسها الشنيع فى استمالة حبيبها ، فأبى لها الشقاء إلا أن تخسر إلى ما خسرته كل ما كانت تملك — من مال وحلى وعقار . بيد أنها هزئت فى هذه المرة بضربات الدهر القاسية بعد أن توالت عليها . ووصلت إلى الحال التى عناها المتنبى بقوله

تكاثرت النصال على حتى فؤادى فى غشاء من نبال
فصرت — إذا أصابتنى سهام — تكسرت النصال على النصال

فلجأت إلى الصبر معتصمة برزانة اليائس فقد كل شىء فلم يعد يبكى على شىء . واستبدلت قطوبها — مخفية ما اصابها من الكمد — بابتسامة انفرجت عنها شفتاها ولكنها

تتم عن بأس قاتل ، ثم التفتت إلى الرابح قائلة : « لقد أصبحت الآن مالك ثروتى كلها ولم يعد لى فيها شىء ، فهل تتفضل بدعوتنا إلى العشاء فى هذه الليلة احتفاء بما نلته من فوز وابتهاجاً بما أحرزته من نجاح » فأجابها المحامى ملبياً طلبها الذى لم يكن يرى أشهى إلى نفسه وأعذب إلى قلبه من تلبيته ، ثم نصبت المائدة واصطفت الكؤوس وبدأ المحامى يقدم لها الكأس الأولى مبتسما لها ابتسامة تجمع معانى شتى أهمها الفوز على عشيقته من طريق الثروة بعد أن هزمته أمامها فى طريق الحب . وفى ابتسامته معنى من معانى الشعور بالغبطة والرضى بما أوصله اليه جده السعيد فأصبح أقدر من ذى قبل على تقديم الهدايا الفاخرة اليها وهى فى هذه الظروف القاسية ، بل لقد صار فى مكنته أن يكشف عنها ويزيل ما بها من الضنك المالى بعد أن كانت فى بحبوحة الرخاء :

تناولت « سيرسيه » الكأس التى قدمها اليها ، وردت على ابتسامته بابتسامة الكمد المتكلفة فأسرع يسارها بقوله : « ثقى أن ثروتك لم تضع بعد ، وأنى فى متناول يدك أن تستردها اذا شئت بأيسر الأثمان ، بثمن زهيد جداً لا يكلفك شيئاً يذكر » ولكنها لا تجيبه بشىء ، بل ترفع الكأس إلى شفتيها فتحتسى منها قليلا ثم تضغط على زجاجها بعنف فتحطم الكأس فى يمينها تحطيما وتدخل شظاياها فى راحة يدها فيسيل منها الدم غزيراً وهنا يتجمع حولها العشاق واجمين مستفسرين عن جلية الخطب ، ويسرع العم (جون) باستدعاء الطبيب الجراح فيحضر على عجل فاذا رأى الطبيب جرحها سألها : « أليس فى البيت أحد من النساء ؟ » فتجيبه : كلا ليس فى البيت إلا الخنازير (عرليس) فيقول لها إنما وجهت اليك هذا السؤال لأننى سأضطر إلى إيلامك فتحملى آلام العلاج بصبر وجلد فتجيبه رابطة الجأش غير مبالية بشىء : « هون عليك يا دكتور ولا تقولن ذلك فلقد طالما تألمت وما كانت حياتى الا سلسلة مفرغة الحلقات من الآلام والاحزان » فاذا شرع فى علاجها قدم لها أحد عشاقها سيجاراً تناولته منه باسمة محيية ، فيزيد ذلك فى امتعاض الطبيب وإذا انتهى من العلاج ضمد جراحها ثم ربطها برباط طويل الى عنقها ، ولا يكاد ينتهى من عمله حتى يجد على أسارير وجهها ألف معنى من معانى المغازلة ويتبين ما ترمى اليه تلك النظرات الفاتنة فينظر اليها عابساً وهو يقول . « يجدر بك أن تقلعى عن هذه المساخر وأن تضعى حداً حاسما لسيرك المعوج » فلا يكون لها من جواب على هذا

القول إلا أن تسرع إلى احتساء كأس مترعة من الخمر وهى تهيب بأصحابها — : اسمعوا ياسادة ، ها إنى أشرب تلك للكأس تجب نصيحة طبيبي الثينة، و يجذبها إلى ناحيته أحد عشاقها فتبدأ معه الرقص كأنما تريد بذلك أن تهتاج نفس الطبيب أو تحرك فيها شيئاً من لواعج الحب أو تثير منه مكمناً من مكامن الغيرة ، ويحاول عاشقها تقبيلها فلا تمانع فى ذلك ممانعة جدية لتزيد بذلك إهاجة الطبيب ، على أنها تهيج بذلك عاشقاً آخر من عشاقها المدلهين ، فيتصدى لصاحبه و يريد المحامى أن يطرد الجميع من البيت الذى أصبح فى حوزته بحكم القانون ، و فى هذه الأثناء تنطلق رصاصة طائشة من يد عاشق آخر فينسون الهرج والمرج و يتملك الذعر نفس سيرسيه فتأخذها رعدة ، و يلتفت الطبيب إلى الحاضرين فزعاً ناقما منهم هذه الاعمال الوحشية التى تبرأ منها الانسانية . نادباً انحطاط الأخلاق وارتكاس الآداب . ولا يكاد يخرج من هذه الحفلة السافلة . حتى يلتقى بها فى الحديقة فينظر اليها محتقراً ثم يسألها مقرعاً — وهو يغذ السير إلى داره — : «ألا تشعرين بمسؤليتك الجسيمة أزاء ما تقترفينه من هذه الشنع ؟ » ولا ينتظر منها جواباً . بل يواصل سيره مسرعاً ، يجلس الطبيب فى غرفته مفكراً فيما مر به من الحوادث العجيبة فى تلك الليلة النكراء : وانه ليجيل فكره فى ذلك غارقاً فى تأمله . إذ يفتح باب غرفته فجأة وتدخل منه سيرسيه . ولا يكاد يرفع بصره اليها حتى تبتدره قائلة — : «ماذا تنقم منى ياسيدى الطبيب؟ ثق أنك واهم فى ظنونك ؟ فانى لست . وايم الحق . ملومة على ما آتيه، بل ليست لى يد فى كل ماحدث بسببى . لقد كونتنى الظروف القاسية تكويناً لم يكن لى فيه أى خيار ، وألقت بى فى هذا الخضم المائج بلا عتاد ، فلم أر بدا من السباحة فى تياره حتى لايغرقنى إلى قراره . ولقد رأيت الناس لايحبون إلا هذا النوع السمج من الحياة الفاسدة فلم أحجم عن مشاركتهم فيما يحبون !» فيجيبها الطبيب قائلا: «بل أنت واهمة فى تبرير عملك مخطئة أشنع الخطأ فى كل ما تلتمسينه لنفسك من الأعذار التى تحاولين بها تبرير ماتقترفين من إثم وفى إقناع نفسك بأنك غير مسئولة عما تجنيه يداك من الجرائم الشنعاء! لا فلتعلمى أيتها السيدة أن أمثالك من النساء قوى هائلة فى هذا الوجود مدمرات كل مايحيط بهن بلا رحمة ولاشفقة ، وها أنت ذى لا تفتئين دائبة على إيقاظ أسفل الغرائز الانسانية ، وأحقر النزعات البشرية فى نفوس خلطائك . ولو أن هذه القوى الهائلة قد وجهت إلى الخير لأتت بأحمد النتائج الباهرة

فتجيبه سيرسية ضارعة

« آه ياسيدى الطبيب لشد ما أخطأت فهمى وأسرفت فى إساءة الظن بى — وماذا يعنيك، إن كنت قد أصبت أو أخطأت ؟ وليس هذا بضائرك . يالله ! ألم تفطن بعد إلى مايجنه لك ، قلبى بماذا — آه من الحب ، نعم من الحب ، ثق أننى أحبك ، أحبك ، أحبك ! »

فاذا سمع منها الطبيب هذه المناجاة لم يعبأ بها وكأنما كانت نجواها إلى سواه، فأشعل سيجارته والتفت اليها التفاتة الهادى، وأجابها ساخراً — وهو يتباطأ فى كلامه — : « أنت تحبيننى ؟ هذا هراء ، هذا مالا أعتقده ، فان مثلك لايعرف الحب » فلا تدعه سرسيه يتمادى فى هذه النغمة المؤلمة من القول ، بل تسرع فجأة إلى يده الممدودة إلى جانبه فتختطفها اختطافا وتدنيها إلى فيها مختلسة منها قبلة حارة، ثم تفر راجعة أدراجها بمثل سرعة البرق، فيجرى وراءها يحاول اللحاق بها بلا جدوى ، حتى إذا يئس من إدراكها عاد إلى غرفته وقد بدأ يساوره الفكر والقلق على مصيرها وأحس أول نيران الحب تضطرم فى قلبه اضطراماً !

تعود « سيرسيه » إلى بيتها منهوكة القوى مشغولة الفكر ، فيقابلها عشيقها المحامى باسما مظهراً لها استعداده التام للتنازل عن كل شىء — إذا شاءت — فلا تعبأ به ولا تلتفت إلى مايقول فيمسك بيدها محاولا تقبيلها أو ضمها إلى صدره فتجذبها عابسة وتدفعه عنها مغضبة فتشتعل فى قلبه نار الغيرة والحقد ويسألها : مامعنى هذا التقطيب وهو صاحب الثروة ومالك البيت والمتصرف فى كل مائملك » فلا تجيب بشىء فاذا رآها لاتجيبه جواباً وأدرك من أساريرها أنها منهمكة غارقة فى بحار أفكارها السوداء بادرها بقوله : لعلك فى شغل شاغل عنى بحب ذلك الطبيب . . . فتقاطعه صارخة : « صه أيها الخبيث ! فأنت غير جدير أن تنطق حتى باسمه : آه لبئس ماجنيته من صحبة أمثالك من خلطاء السوء ورفقاء الشر الذين أوصلتنى مصادقتهم إلى هذه العاقبة السوأى ، وأسلمتنى صحبتهم إلى فقدان كل أمل فى الحياة الفاضلة » وهكذا يسدل الستار على هذا المنظر الرائع :

ونعود إلى الطبيب فنراه جالساً جلسة المضطجع على أحدى أرائكه غارقا فى تأملاته مرسلا فكره فى جمال سيرسه والتملى من حسنها، وقد دفعه الفكر إلى تمثل كثير من الأحلام والأمانى اللذيذة عنها فقد بدأ يتمثلها أمامه الآن ملكا كريماً . لابشرا سوياً، واستعاد فى ذاكرته تلك القبلة

المختلسة التى اختطفتها من يده اختطافا فأحس كأن نار الحب يسرى ضرامها من مكان تلك القبلة إلى كل ناحية من أنحاء جسمه ، وطاف بذهنه كل مامر أمامه من حب سيرسيه وشدة تعلقها به ووجدها الذى أثبتت الحادث صدقه، وطفق يحلل كل ماأتته من الأعمال فيزيده ذلك بها شغفاً وهياما . وتنجلى له البواعث الحقيقة التى دفعت بها إلى كل مافعلته ويتكشف له أخلاصها وحسن طواياها ونبل مقاصدها

لقد أدرك أخيراً أن سيرسيه محبة صادقة فى حبها، ولو أنها من يماذقه الحب لما أبهت له ولا شغلت بالها به إلى مثل هذا الحد ولانصرفت إلى عشاقها الكثيرين الذين لايترددون لحظة واحدة فى تلبية أشارتها وانفاذ رغباتها ، وذكر أنه لم يقدم لها هدية ولا هو غنى فيطيبها غناه وتستميلها ثروته . وهكذا تضافر كل شىء وتكانفت كل ظواهر الأمور وبواطنها على تفسير حبها أياه بمعناه الصحيح الذى كان جديراً أن يفهمه من قبل على حقيقته ، ولقد ظهرت له سيرسيه فى أحلامه ملكاها هابطاً من السماء مرة ثم صاعدا اليها مرة أخرى، وبما رأى هذا الملك السماوى جاثماً بين يديه أو طائراً فى أجواز الفضاء أو محلقاً معه فى اجواء السعادة والهناء. وربما خيل اليه أن حبلا من حبال الأمل قد تدلى به من السماء وأنه متعلق به وحبيبته سيرسيه، وقد بدأ يرتفع بهما وهما صاعدان حتى بلغا ذروة الرجاء وأشرفا على عالم بهيج تغنى فيه الطيور الجميلة . وتسطع فى سماواته شمس السعادة وتنمو فيه أزهار الحب ناضرة فرحه وربما أحس كأنما يدها البضة الناعمة تلمس كتفه برفق . فأفاق من سنته متهيئاً لعناقها . فلم ير أمامه أحداً . فانثنى إلى تأملاته مستأنفاً أحلامه السارة من جديد، ولم تكن سيرسيه تبدو له فى ذلك الحين الا متحلية بأجمل مايتحلى به الحبيب لحبه من حلال الحسن الضافية وحلل الطهر والعفة والأخلاص، حتى لقد هم مراراً أن يذهب إلى بيتها جرياً على قدميه ليظفر بلثم وجناتها وينعم بقربه منها. متملياً بمحاسنها المتجددة الباهرة، على أنه لم يلبث أن تملكته هذه الفكرة بعد قليل وامتلأت بها نفسه فذهب إلى بيت حبيبته سيرسيه :

ونعود الآن إلى منزل سيرسيه فنرى العم جون واقفا يسأل الخادم السوداء عن سيدتها سيرسيه فتجيبه محزونة — : لقد غادرت المنزل منذ هنيهة تاركة لك هذه الرسالة . فيسرع العم جون إلى فضها وقراءتها، ولا يكاد يأتى على آخرها حتى يتملكه الأسى

و ينهنهه الوجد إذ يقرأ : « بع كل شيء وسدد ديونى ثم خذ ما تبقى لك أما أنا فلا يعنيك أمرى ولا يقلق بالك مصيرى ولتثق أنك لن تعثر على مكانى إذا بحثت عنه . فلا تطلب المحال ولا تعلل نفسك بباطل الآمال والسلام عليك من الشاكرة لك على صنيعك المقدرة كل بذلته لها من معروف وقدمته من جميل » ظل العم (جون) برهة حائراً ، يعيد تلاوة الرسالة مثنى وثلاث ورباع وإنه لكذلك إذ حضر الطبيب فاذا رأى العم (جون) حياه مستفسراً عن سيرسيه فلم يجبه بأكثر من إعطائه رسالتها التي تركتها مع الخادم منذ هنيهة ، وثم يحس الطبيب كان شراراً تطاير بين جنبيه ، واسودت الدنيا فى عينه وقد أدرك أن (سيرسيه) قد فرت فرار اليائس بعد أن سد أمامها كل أبواب الرجاء ، فأنحى على نفسه باللائمه وخجل مما أتاه من التصلب والعناد حين كان جديراً أن يسلك معها سبيل الرفق واللين والكياسة ، وبدأ يتمثل ما يستقبله من الآلام والاحزان المضنية ويرى فى الأيام القابلة ظلمات كثيفة متراكمة لا تسطع فيها اضواء الحب ولا تنير هاشمسه وكأنما أيقن أن نجم سعادته قد أفل فعاد أدراجه والهم يكاد يصمى فؤاده ، وطفق والعم جون يبحثان عن (سيرسيه) فى كل مكان يظنانها تغشاه زمنا طويلا . دون أن يرجعا بطائل ، حتى كاد يخامرهما اليأس : أما سيرسيه فقد علمت أن الطبيب الذى تقدسه متفانية فى حبه قد أخطأ فهمها وأساء الظن بها وعرفت معرفة اليقين أنه لم يحكم عليها إلا بظاهر أمرها دون أن يعنى نفسه باستكناه حقيقة حالها وطهارة نفسها ، علمت (سيرسيه) أن الطبيب الذى ناطت به كل أمل فى إسعادها يحتقرها احتقاراً ، وأى شيء أدعى للحسرة وأجلب للألم من رؤية من لا يعبأ الأنسان بأحد فى العالم إلا به ولا يهمه رضى سواه أو سخطه ، أى شيء أنكى من سخط هذا الحبيب الذى لا يهم الأنسان أحد سواه فى كل هذه الأرض الفسيحة

فليتك تصفو والحياة مريرة ... وليتك ترضى به والأنام غضاب
إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذى فوق التراب تراب

(٥٥)

ولكن ماذا تعمل سيرسيه وقد رأت أن كل من يستوى عندها حبهم وسخطهم يهيمون بها هياما ولا يترددون فى تلبية أية اشارة من اشاراتها . فى حين أن معبودها الذى ينير لها حبه طريق الحياة لا يفكر فيها ولا يهمه من أمرها شيء ، لم تجد سيرسيه أمامها وسيلة تلجأ اليها

فى الحياة — بعد أن كرهتها وكرهت كل ما فيها . إلا الرجوع إلى أمنيتها الأولى التى طالما عجزت عن تحقيقها فذهبت ميممة ملجأ حداثتها ومطمح أحلامها من قبل وهو الدير . فلما بلغته مرت بذكرها طائفة من الذكريات المختلفة ولم تكد تطأ قدماها بابه حتى أيقنت أنها تستقبل عهد الدعة والطمأنينة ومرت الأيام تترى وهى ترتل صلواتها مبتهلة إلى الله مازجة دعاءها وصلواتها بذكر حبيبها الذى يئست منه إلى الأبد ومرأمامهامشهدالراهبات فى ساعة متأخرة من الليل ذاهبات إلى الصلاة . فذكرها ذلك بالمشهد السابق الذى رأته وهى طفلة وتعاقبت الأيام وهى منصرفة إلى العبادة مازجة الصلاة بالحب ، تجلس حولها فتيات صغيرات تعلمهن فى حديقة الدير باسمات حولها فرحات بما يتلقينه منها مؤتنسات بأحاديثها الجميلة

وفى ذات يوم لمحت إحدى تلميذاتها تعدو نحوها مسرعة قائلة هاهى الآنسة (مارى) مقبلة فأسرعت سيرسية إلى لقائها ولكنها ، ولكنها لم تكد تجتاز باب الحديقة وتخرج من الدير إلى عرض الشارع حتى دهمتها سيارة مسرعة فى منتصفه فكسرت ساقيها وغابت سيرسية عن الوجود فحملوها وهى فاقدة الرشد إلى مستشفى الدير حيث بدؤا يعالجونها .

نعود إلى الطبيب العاشق فنراه يعد ان بحث فأضناه البحث وفتش عن سيرسية فى حيثما عن له أن تكون فأعياه الأمر وانتابه اليأس من العثور عليها وأيقن أن كل مجهود يبذله فى هذا الصدد ضائع وما آله الفشل والخيبة ، كف عن البحث مستشعراً اليأس من لقائها قانعا بالتمتع بها فى عالم الخيال والأحلام بعد أن عجز عن التمتع بها فى عالم اليقظة والحقيقة

ولكن الدهر أبو العجب وأضيق الأمر إن فكرت ـ أوسعه ، وكثيرا ما ينبلج صبح الأمل بعد أن يحلولك ليل اليأس ويشتد ظلامه

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما ... يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

فقد خرج الطبيب ذات يوم وكلبه يرافقه فلما بلغ مكانا مزدانا بالأزهار والخضرة جلس ولم يكد يستقر فى الجلوس حتى بدأ يداعب كلبه ولامر ما ألقى اليه عصاه على أبعد مسافة استطاعها فأسرع الكلب يعدو فى أثرها باحثاً ولكنه عاد بعد قليل وفى فيه شىء غيرها ، فلما دانا تبين الطبيب أنها مذكرات ، ولشد ما غمرته الدهشة

حين رأى اسم سيرسية مكتوبا عليها فأقبل على مطالعتها بلهفة المشوق وهو يكاد يلتهمها التهاما وزادته مذكراتها اقتناعا بطهارة نفسها ونبل مقاصدها ، على أنه لم يطل به البحث وهو يقلب صفحاتها فقد رأى فى ثناياها عزمها على الذهاب إلى الدير المقدس (أورليان) وما كاد يقع بصره على هذه الجملة حتى طفح وجهه بشرا وامتلأت أرجاء نفسه بهذا الاكتشاف الباهر غبطة وأنسا ، حتى خيل اليه أن الكون بأسره باسم له وأن ليس فى هذا الوجود الا طلاقة وسرور شامل ولاح له فجر السعادة المنبلج تبدد أضواؤه ظلام اليأس وتقشع سحب الخيبة التى كانت غائمة فى نفسه فكر ، راجعا إلى العم (جون) ليخبره بهذا الاكتشاف الرائع الذى هداه اليه حسن طالعه

ونرى منظراً آخر فيه راهبات الدير يدعون دعوات حارة صادرة من أعماق قلوبهن مصليات ضارعات إلى الله أن يمن على سيرسية بالشفاء العاجل من تلك الصدمة القاتلة ونرى طبيبين فى حجرة (سيرسيه) المريضة يتهامسان فيها مقررين عجزهما عن شفائها ويأسهما من انهاضها من كبوتها ولكن أحدهما يقترح على زميله أن يسلكا معها سبيل الايحاء وان ينميا فيها هذا الاعتقاد المتأصل فى نفسها . وثم قال لصاحبه ، مادامت بنوهم أنها قادرة على المشى فماذا علينا إذا جاريناها فى اعتقادها وأدخلنا فى روعها أنها شفيت وأنها تستطيع السير الآن ، لعل ذلك يكون من أسباب شفائها ، وان كان الامل فى نجاحنا ضعيفا ، ولكن لتكن هذه هى التجربة النهائية » وثم يقولان لها وهاأنت ذى قادرة على المشى فانهضى أيتها الفتاة » وتحاول الفتاة تلبية هذا الطلب فتشرع فى النهوض مع ما تكبدها تلك المحاولة المتعبة من الجهد وتنهض متثاقلة معتمدة ذراعى الطبيبين حتى لا تسقط إلى الارض فاذا تركا ذراعيها القياها لاتماسك بيد أنها تعتصم بالجلد محاولة أن تغالب ضعفها وتأبى قدماها الخائرتان أن تحتملاها فتترنح ترنح من يوشك أن يهوى ساقطا الى الارض وانها لكذلك إذ يدخل حبيبها الطبيب فلا يكاد يقع بصره عليها حتى يناديها باسمها ، هـذه هى أنت ياسيرسية »

أى صوت ملكى تسمعه أذناها وأى حلم جميل تراه فى يقظتها فلا تكاد تصدق أنه حقيقة واقعة فتنظر إلى حبيبها مشدوهة ولهى مرهفة أذنيها مستجمعة حواسها الضعيفة وقواها الخائرة فتسمع صوته الساحر يناديها ثانية «هلمى إلى ياسيرسية هلمى إلى !» فلا يتم هذه الجملة

العذبة الخلابة حتى يتبدد كل شك فى نفسها وتوقن أنها يقظة غير حالمة ؛وتنظر فتجده فاتحا ذراعيه اليها فتمد يديها اليه ، وكأنما نسيت ضعفها ويأس الاطباء من شفائها وعجزها منذ لحظة عن الوقوف على قدميها فضلا عن السير ،وكأنما أنساها الظفر كل شيء إلا ما تحلم به من ادراك السعادة الوشيكة بقرب حبيبها الذى قطعت الأمل من لقائه فتستمسك فى الحال وتتحرك قدماها نحو حبيبها تحركا وئيدا ،وتخطو اليه خطوتين فاذا رأت ذراعيه تستقبلانها ارتمت فى أحضانه، وتنطبع على شفاههما قبلة فيها كل معانى البث والجوى ؛ وتمر بهما لحظة تتضاءل أمامها كل لذات الحياة ومسراتها ، وتريد! (سيرسيه) أن تستيقن متثبتة من أنها فى اليقظة فيشتد التصاقها به وتسأله:

«ألست حالمة ؟أحقا انى ظفرت بالسعادة بقربك فيضمها حبيبها إلى صدره ضمة المولّه المشغوف وهو يقول:» كلا لست حالمة بل أنت بين ذراعى وستكونين لى وحدى مدى الحياة» !

«تمت» «ك . ك .»

اطلب من دار العصور للطبع والنشر

ومن جميع المكاتب المعروفة

روايات معضلات المدنية الحديثة

وسفالات أمرى

بقلم

اسماعيل مظهر